

صور الوصف في شعر ابن درّاج القسطلّي

د.نسرين لميسي

جامعة محمد خيضر - بسكرة

ملخّص:

تأثر الشاعر الأندلسي بالطبيعة بشكل كبير، وقاده جمال الطّبيعة إلى تشخيص الجمادات الطّبيعيّة: فنجد ابن درّاج القسطلّي ملهم بمحاكاة مظاهر الطّبيعة بمختلف أنواعها، فأكثر من الصّور والتّشبيهات في شعره، من خلال التّقريب بين الأمور البعيدة عن بعضها البعض، كما صوّر الأمور بشكلٍ بطيء، ووقف بوصفه عند الدّقائق فأطال الحديث عنها، وتعدّد موضوع الوصف عند شاعرنا، حيث وصف طبيعة الأندلس الطّبيعية والصّناعية بما تشمله من حقول، وأنهار، وجبال، وقصور، وبرك، وأحواض، كما صوّر لنا كثرة المعارك والجيوش في بيئة لم تهدأ فيها حرب إلاّ لتشبّ أخرى، ونخلص في موضوعنا إلى أنّ الوصف شمل جميع جوانب الطبيعة عند الشاعر.

الوصف غرض شعري له مكانته في الشعر العربي قديما وحديثا، فهو ينقلنا إلى عالم آخر يخلقه لنا الشاعر وينقل ما فيه من دلالات نفسية وفكرية لذلك كان من شروط الوصف أن يكون سمحا سهل مخارج الحروف من مواقعها، عليها رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة⁽¹⁾، وتعددت صور الوصف عند الشاعر ابن دراج القسطلّي أهمّها:

أولا - وصف الطبيعة:

تفنن الأندلسيون في شتى الأوصاف حتّى فاقوا المشاركة في بعضها، كوصف الطبيعة الناعمة، والمدن العامرة، فكل شاعر منهم متصل بالطبيعة وهو مشغوف بعمارة بلاده، وكان لهم يد في وصف الفلاة الخالية، والوحوش الضارية، والخيل، والإبل، وبرعوا في وصف مجالس اللّهو والغناء والرقص والشراب وآلته، ووصفوا الصيد وأدواته والسلاح والسفن⁽²⁾.

وأظهر الأندلسيون عبقرية نادرة في الشعر الوصفي، ونستطيع أن نقول: إنّ اهتمامهم به كان كبيرا، وعلى الرغم من امتزاجه في أكثر الأغراض الشعرية، فقد استطاعوا أن يمنحوه بعض الاستقلال⁽³⁾. لذا اتّصل شعر الطبيعة بأكثر الأغراض الشعرية في الأندلس، فأصبحت قصائد

الشعراء تبدأ بوصفها، وكأننا أمام مقدمات طلبية، كما كان شائعاً عند الجاهليين، وجاء هذا نتيجة اهتمامهم بطبيعة بلادهم، فدخلت غزلهم ومدائحهم، فضلاً عن ذلك ما رأيناه عند ابن درّاج في وصفه لبعض مظاهر الطبيعة وبقربها بمدوحه كما سنرى.

ونقف الآن في موضوع وصف الطبيعة عند شاعرنا، ومن أهم ما لفت انتباهنا: أنّ المنصور بن أبي عامر كان قد سعى بناته بأسماء الزهور⁽⁴⁾ ومنها قوله في وصف السوسن⁽⁵⁾:

إِنْ كَانَ وَجْهُ الرَّبِيعِ مُبْتَسِمًا فَالسَّوسَنُ الْمُجْتَلَى ثَنَائَاهُ
يَا حُسْنَهُ سِنَّ ضَاكِ عَيْقٍ بِطِيبِ رِيحِ الْحَبِيبِ رِيَّاهُ

فابن درّاج هنا قارن بين جمال الممدوح وجمال السوسن، حتّى أنّه شبهه به أو يفوق الممدوح جمالا، ويشخص الربيع الذي إذا ابتسم وبدت أسنانه، فإنّ السوسن سيكون هو أسنان الربيع أو ثنياه ناصعة البياض، واصفاً حسنَ منظره وطيب رائحة هذا الفم بما فيه من أسنان، ويعكس الصورة فيجعل رائحة السوسن تشبه رائحة طيب الحبيب⁽⁶⁾، وأكثر ابن درّاج من وصف الورد في موضوعه الرئيسي، وجعله سلطان الزهور، وشبه الخدود الجميلة به يقول⁽⁷⁾:

ضَحِكَ الزَّمانُ لَنَا فَهَكَ وَهَاتِهِ أَوْ مَا رَأَيْتَ الْوَرْدَ فِي شَجَرَاتِهِ؟
قَدْ جَاءَ بِالنَّارِجِ مِنْ أَغْصَانِهِ وَيَخْجَلُ الْمَعْشُوقِ مِنْ وَجَنَاتِهِ
وَكَسَاهُ مَوْلَانَا غَلَاظِلَ سَيْفِهِ يَوْمًا يُسْزِلُهُ دِمَاءُ عِدَائِهِ
مِنْ بَعْدِ مَا نَفَخَ الْحَيَا مِنْ رُوحِهِ فِيهِ وَعُرْفُ الْمِسْكِ مِنْ نَفَحَاتِهِ

فهو يصف إقبال الحياة عليهم وشعورهم بجمالها ثم ينتقل إلى الزمان وهو يضحك لهم وراح يتبع مظاهر ضحكها في هذا الورد بما يراه من صفوة التاريخ وحمرة خدود المعشوق عند خجله، وشدة بياض سيف الممدوح ولكن هذا البياض مشوه بالحمرة دليل على دماء الأعداء الذين أصابهم الممدوح بسيفه ثم يصف نظارة ورائحة الورد التي منحها له المسك⁽⁸⁾.

ولم يتوقف الشاعر عند وصف الحقائق والرياض فقط؛ بل تطرق إلى وصف جريان المياه(البحر)، فقد حظيت عنده الأمطار وما صاحبها من ظواهر أخرى من غيوم وبرق ورعد وبرد وما يرتبط بها أو يشبهها من ندى وظل، فرسم صوراً جميلة حاكى فيها جمال الطبيعة، فيقول في موضوعه الرئيسي حين يصف البرق والسحاب⁽⁹⁾:

فَكَأَنَّ مِنْ حَانِي السَّحَابِ جُودَهَا وَكَأَنَّ مِنْ صَعْقِ الْبُرُوقِ حُسَامَهَا
فَعَلَى سَوَاكِبِهَا إِذَا جَادَتْ رَبَّى زَهَرَ الرَّجَاءُ فَوَاتَرَتْ إِنْغَامَهَا
النُّجُومَ سَوَارِيًّا إِلَّا رَأَتْهُ فِي السَّنَاءِ أَمَامَهَا

من خلال هذه المقطوعة نستخلص أن ابن دراج متأثر بالطبيعة الأندلسية، لذا نجد وصف ثري بالتشبيهات والاستعارات. أمّا من حيث التصوير فإنه استطاع بقدرته الفنية أن يصوّر البرق والسحاب في فصل الشتاء، والبرق في تلك اللحظة يعطي الجهات والأشياء ضوءاً قوياً لأنّ النجم الساري ضل سبيله في ليلته المظلمة، لكن سرعان ما أشعل البرق لظلام الليل مصابيحها فاستحال وجهها المظلم مشرقاً مضيئاً، فهذه الصورة توحى بسر جمال الطبيعة عنده. ويصف البرق والرعد قائلاً⁽¹⁰⁾:

يحدو ويتسم برقه فتخاله ملكا سطا بالوعد والإيعاد
تمري البوارق ويله فكأنها رشق أصيب به ذوو إمراد
فالشاعر يوضح أنّ السحاب لما لحقه صوت الرعد والوعيد وتبعه البرق شبهه بالملك الجبار، كلامه مزيج بين الوعد والوعيد فالوعيد يقابل ابتسام البرق والوعيد يقابل دوي الرعد، ولم يقف الشاعر عند صورة الطبيعة الكونية فحسب، بل تعداها إلى معالم أنشأها الممدوح ليصفها، ومن ذلك قوله يصف دار السرور بالزاهرة يقول⁽¹¹⁾:

دَارُ السُّرُورِ الْمُغْتَلِي شُرْفَاتُهَا فَوْقَ النُّجُومِ الزَّهْرُ فِي اسْتِعْلَانِهَا
وَكَأَنَّ رِيحَانَ الْحَيَاةِ وَرَوْحَهَا مُسْتَنْشَقٌ مِنْ نَافِحَاتِ هَوَائِهَا
فَكَأَنَّمَا اصْطُفِيَتْ طَلَاقَةً بِشْرِهَا مِنْ أَوْجِهِ الْأَحْبَابِ يَوْمَ لِقَائِهَا

إلى أن يقول:

وَكَأَنَّمَا أَيْدِي الصَّبَا مَا بَيْنَهَا هَزَّتْ سُيُوفَ الْهِنْدِ يَوْمَ جَلَائِهَا
وَكَأَنَّمَا لَمَّا اعْتَزَّتْ فِي حِمِيرٍ نَشَرَتْ عَلَمَهَا مِنْ كَرِيمِ ثَنَائِهَا

فالشاعر يصوّر ارتفاع دار السرور حتى ناطحت السحاب، فشرفاتها تعلو فوق النجوم الزاهرة وتقترب من السحب التي أفاضت عليها من غيثها حتى اكتست أبهى كسوة، ثم جعل الحياة تستمدّ عبرها وشذاها من طيب هوائها، ثم ينتقل بنا ابن دراج إلى وصف شارع من صنعه فيقول⁽¹²⁾:

أَيُّ شِرَاعٍ لِأَيِّ بَحْرِ وَأَيُّ كِسْفٍ لِأَيِّ بَدْرِ
وَأَيُّ شَمْسٍ تَجَلَّلَتْهَا طُرَّةُ صُبْحٍ سَمَتْ بِقَجْرِ
تُشْرِقُ مِنْهُ بَنُورُ هَـذِي وَبَرَقَ غَيْثٌ وَسَيْفٌ نَصْرِ
كَأَنَّمَا ظَلَّلْتُ عَلَيْهِ سَحَابَةٌ مَدَّهَا بِقَطْرِ
أَوْ رَوْضَةً فِي الْهَوَاءِ حُقَّتْ مِنْ طِيبِ أَخْلَاقِهِ بَرْهَرِ

قد بدأ الشاعر مقطوعته بالتساؤل عن الشراع، إذ شبهه بنور يشرق وبرق غيث وفي الوقت نفسه سحابة مليئة بالأمطار مما جعله يصبح نسيما في الهواء وهذا من طيب أخلاق الزهور، إذ هي مليئة بالاستعارات والتشبيهات، فهو يعبر عن إعجابه رابطا ذلك بالمدوح إذ شبهه بالبدر الذي لا يصيبه كسوف، وبعدها يشبه وجهه بالشمس المشرقة مع وقت الفجر، وفي نفس الوقت هذا الشراع يمنع وصول الشمس إلى السفينة، فالسفينة إذن تستمد نورها من برق غيث المدوح، كما يشبهه أيضا بسحابة تظل السفينة وتمدهم بالغيث المستمد من كرم المدوح، ثم يشبهه بالروضة في الهواء التي تفوح رائحة أزهارها والتي تستمد عبيرها من طيب أخلاق المدوح، وكرّر هذه الصورة في وصفه ماء الصهريج الذي يشبه فيه جريان الماء فوق الرّخام بريق الحبيب الذي يجري على أسنانه، ويشبه هذه الأسنان بالجواهر الذي أبدع نظمه، وذلك ليناسب به ما ذكره عن الرخام وصفائه وبريقه يقول ⁽¹³⁾:

فَكَأَنَّ ذَلِكَ الْمَاءَ ذَوَّبَ رُخَامَهَا وَرُخَامَهَا مُتَجَسِّدٌ مِنْ مَائِهَا

ومنه أيضا حديثه عن الطبيعة والحنين معا فيقول ⁽¹⁴⁾:

يُهَيِّجُ فِيهَا زَفِيرُ الرِّيحِ مَدَامُغُ شَجْوِ السَّحَابِ الْمُخَيَّلِ
تَظَلُّمٌ مِنْ هَاطِلَاتِ الْغَمَامِ وَتَشْكُو مِنَ الرِّيحِ جَرَّ الدُّيُولِ

عبّر ابن درّاج عمّ يختلج في صدره من عواطف وانفعالات، وما يجول في خلدته من أفكار، بألفاظ سهلة وهذه الخاصية الأولى لشعر الحنين ⁽¹⁵⁾.

فالرياح كانت تؤثر في نفسية الشاعر، فتسيل دموعه بغزارة، كما جسّد حنينه إلى الوطن في صورة سحاب فجعله يشجو ويدمع، وجعل البرق كفا يلطم به الخدود، وهذه الخدود هي السحاب، فكل هذه المكبوتات جسدها في الطبيعة.

إذن فالشاعر جعل الطبيعة تشاركه مشاركة وجدانية في ألمه وفرحه بلقاء الأحبة وحنينه إليهم، فشعر الحنين له صلة عميقة بجمال الطبيعة عند شاعرنا، ولعلّ النماذج السابقة تصوّر هذه الظاهرة بشكل واضح.

ثانيا - وصف المعارك والجيش:

لا عجب أن يكون لوصف المعارك نصيب وافر من الشعر الأندلسي، فإن الحروب بين المسلمين وأعدائهم لم تنقطع فلم تهدأ حرب إلا لتشب أخرى، ولهذا حَفِلَ شعر ابن درّاج بذكر المعارك وكثرة الجيوش⁽¹⁶⁾.

ويعدّ الشاعر من وصّاف المعارك الحربية، والحروب ؛ فقد عاش في فترة كانت المعارك من أبرز نشاط حكامها، وكان الشاعر يعمل خدمة لهؤلاء الحكام والرؤساء، الذين خاضوا معارك كثيرة، كما خاض المنصور العديد من المعارك ضد مسيحي الشمال، ومن الطبيعي أن يحتل المنصور مكاناً فسيحاً في وصف تلك المعارك؛ لأنّه كان رابطاً بحياته بهم، جاعلاً فنّه في خدمتهم وتسجيل انتصاراتهم وأمجادهم، ومن هنا كثر حديثه عن المعارك والمحاربين، وقد شغل حديثه عن وصف الجيش حيّزاً كبيراً من شعره، فكشف عن عدده وعدّته، وأشاد بقوته، وتحدث في موضوعه الرئيسي، عن بطولات الجند، فيقول في قصيدة يبدأ فيها بتصوير كثرة الجيش وغزارة عدّته القتالية⁽¹⁷⁾:

فِي جَحْفَلِ جَمِّ الْعَدِيدِ كَأَنَّهُ فَلَكُ عَلَى الْأَرْضِ الْقَضَاءِ يَدُورُ
الْأَقْطَارُ إِلَّا مَوْضِعاً فِيهِ عَدُوُّكَ لِلسُّيُوفِ أَسِيرُ
لَجِبٍ يُغْصُ الْأَرْضَ وَهِيَ عَرِيضَةٌ وَيَرُدُّ غَرْبَ الطَّرْفِ وَهُوَ حَسِيرُ
مِنْ كُلِّ مَقْدَامٍ يَكَادُ فُؤَادُهُ طَرَبًا إِلَى نَعَمِ السُّيُوفِ يَطِيرُ

يصور ابن درّاج الجيش من خلال ما يشاهده من الحشود المنطلقة للمعركة والتي لا تستطيع العين أن تحدد بدايتها ونهايتها. ويوظف الطبيعة، الأرض والقمر والسماء والبحر والبرق

والسحاب ليعطي هذا الجيش القوة والشمول لكل جزء في الطبيعة بحيث يدل على أنّ العدو لن يستطيع أن يقف أمام هذا الزحف، وما ضيق الأرض عن هذا الجيش الذي يشبه الفلك الدوار والجندي الذي يشبه القمر، والخيّل التي تشبه البحر إلا دلالة على أنّ النظر سيكون حليفه حتما، ولن تقف قوة الأعداء أمامه؛ وهذا الوصف يظهر لنا قدرة ابن درّاج على التصوير، وتدل أوصافه هذه على أنّه شاهد عيان للمعركة لأنّه يصوّر الجيش تصويرا دقيقا بحركته وتقدم الجنود والتعبيرات التي على وجوههم وكيفية ارتدائهم للسيوف وتحكمهم فيها والرمح الدقيقة التي تشبه القلم الحاد⁽¹⁸⁾، من خلال هذا التحليل نلاحظ سيطرة الجانب الحركي على فكرة الشاعر، في كل ما تناوله، ويؤكد ذلك ألفاظه التي اختارها (يطير، لج، سابح، قطير، ريعان، مرج، يسير) إذ لا يخلو بيت من لفظ يدل على الحركة، كم جاءت صوره دالة على ذلك أيضا، كصورة البحر، البرق... وهذا يوحي بجو المعركة وعظمة وكثرة الجيش فهو يملأ الأرض، ويصفه في موضع آخر فيقول⁽¹⁹⁾:

وَلَقَدْ خَلَعَتْ عَلَيْهِ قَبْلَ دُنُوِّهِ بُرْدًا تَفِيضُ عَلَى الْفَضَاءِ فُضُولُهُ
شَرِقًا بِهِ لُوحُ الْهَوَاءِ وَجَوُّهُ غَرِقًا بِهِ عَرْضُ الْبِلَادِ وَطُولُهُ

فالشاعر هنا يشبه الجيش بالثوب أو البرد الذي يكسر الأرض وتبقى منه فضول تتدلى في الفضاء، وهو لكثرتة يغصّ به الهواء، وتكاد تغرق البلاد بعرضها وطولها في خضمه⁽²⁰⁾، أما فيما يخص وصف المعارك نلاحظ أنّه يمزج بين صورة الجيش ومظاهر الطبيعة أيضا فمن قوله يصف الجيش مندر بن يحيى⁽²¹⁾:

جَيْشًا إِذَا آدَمَاتُ الْأَرْضِ تَعْدِلُهُ بِجِلْمٍ أَرْوَعَ رَاسِي الْجِلْمِ مُتَّئِدُهُ
كَالْبَحْرِ تَنْسُجُهُ رِيحُ الصَّبَا حُبْكًا إِذَا تَرَفَّرَقَ فِي الْمَآذِي مِنْ زَرْدِهِ
بَحْرٌ سَفَائِنُهُ غُرٌّ مَسُومَةٌ وَالْبَيْضُ وَالْبَيْضُ وَالرَّايَاتُ مِنْ زَبْدِهِ

فهو يصف قوة الجيش وثقل حجمه بحيث لا تقدر الأرض على حمله وتكاد تضطرب، إذ شبه الجيش بالبحر، وما يحمله من دروع بالموج الذي تحدثه ريح الصبا فيه، ولمعان هذه الدروع كحركة الأمواج في البحار ثم ينتقل إلى تشبيه الخيول بالسفن في البحر وبريق السيوف ولمعان رايات الزبد الذي يطفو على وجه الماء بلونه الأبيض ويشير إلى شجاعتهم وقدرتهم الحربية قائلًا في وصفه جيوش العامري⁽²²⁾:

كَتَائِبُ تَعْتَامُ النَّفَاقَ كَأَتَمَ شَأْيِبُ فِي أَوْطَانِهِ وَسُيُولُ

بِكُلِّ فِتْنَى عَارِي الْأَشَاجِعِ مَالَهُ سَوَى الْمَوْتِ فِي حَيِّ الْوُطَيْسِ مَثِيلُ

فهو يشبه الكتائب بسرعتها وشدتها بالسيول، ويشبه الثقباب ويقصد به الخارجين على المنصور العامري وهذه العوارض التي تقتلعها السيول، كما يشبه شجاعة الفرسان وحركتهم في المعركة بالخفة، وإذا اشتدت بهم المعركة يبحثون على الموت لأنه أحسن بديلا، ومن ذلك أيضا وصفه لكثرة عدة وعتاد الجيوش فيقول⁽²³⁾:

كَتَائِبُ لَوْ يُرْمَى بِهَا الدَّهْرُ قَبْلَنَا لَزُلْزِلَ ذُو الْقَرْيَيْنِ مِنْهَا وَسَدُّهُ

كَأَنَّ فُضَاءَ الْأَرْضِ أَلْيَسَ مِنْهُمْ لَبُوسًا مِنَ الْمَآذِيِّ قَدِيرَ سَرْدُهُ

تُهْدُّ بِهِمْ شُمُ الْجِبَالِ فَإِنْ هَفَوْا فَلَحْظُكَ يَرْمِي جَمْعَهُمْ فَمِهُدُهُ

فَمَا يَنْظُرُ الْأَعْدَاءُ إِلَّا عَجَاجَةً يَسِيرُ بِهَا الرَّحْمَانُ فِيهَا وَعَبْدُهُ

ففي هذه الأبيات يصف لنا كثرة الجيش وعتاده، فنراه يوظف عناصر الطبيعة من جبال، شمس، سيول... كما يصوّر قوة هذه الكتائب إذ يعجز الزمان أن يقف أمام تحرّكها، وقد أخذت الخيل نصيبا وافرا في وصفه، فوصف ألوانها المختلفة وأحجامها وقوتها في خوض المعارك، فهم أسود كالليل الحالك، وأحمر بالجمر الملتهب، الذي ينطلق مسرعا يوم المعارك، وأنّ كريم الأصل لا يبخل بالكرّ، والظعن أشبه بالعقاب في سرعته والظبي في خفته، وفي هذا يقول⁽²⁴⁾:

وَجَرْدَاءَ لَمْ تَبْخَلْ يَدَاهَا بِغَايَةٍ وَلَا كَرُّهَا نَحْوَ الطِّعَانِ بِخَيْلٍ

لَهَا مِنْ خَوَافِي لِقَوَةِ الْجَوِّ أَرْبَعُ وَكَشْحَانٍ مِنْ ظُبْيِ الْفَلَا وَتَلِيلٍ

جمع الشاعر في هذين البيتين عدة أوصاف للخيل، تدل على عتقها ونجابتها، كقوله "جرعاء" وفيها إحياء بالقوة والصلابة، أما قوله "لم تبخل يداها بغاية" فكناية عن السرعة في العدو، وهو تعبير قائم على التصوير الخيالي الموحى، حيث صوّر المدى أو الغاية بالجود والعطاء، وصور امتداد يد الفرس في العدو، ببسط اليد والعطاء⁽²⁵⁾، فجادت الخيل بكل ما في وسعها، وجودها يتمثل في سرعتها المفضية للغاية، ثم صورها بالعقاب الذي يوحى بالقوة ويدل على الخفة والسرعة وصوّر كشحه بأبطل الظبي في الرشاقة وضمور خصرها، وعنقه بجيده في الحسن والطول، ثم ينتقل بنا إلى وصف الجواد فيقول⁽²⁶⁾:

سَامِي التَّلِيلِ كَأَنَّ عَقْدَ عِذَارِهِ فِي رَأْسِ غُصْنِ الْبَانَةِ الْمَيَادِ
يُهْدَى بِمِثْلِ الْفَرْقَدَيْنِ وَنَابَ عَنْ رَغْيِ السَّمَكَ بِقَلْبِهِ الْوَقَادِ
فَكَأَنَّمَا أَطَأُ الْأَبَاطِحِ وَالرُّبَى بِعُقَابٍ شَاهِقَةٍ وَحَيَّةٍ وَادِ
وَكَأَنَّهُ مِنْ تَحْتِ سَوْطِي خَارِجًا فِي الزَّوْعِ شُعْلَةٌ قَادِحٍ بِزَنَادِ

فوصف الجواد في الحرب وركّز على قوته وصفاته الجميلة ونسبه الأصيل، فنرى أنّ الخيول والجواد قد نالت من اهتمام الشّاعر الأندلسي، وحظيت بحرصه عليها وتفاديه بها وبقوتها وسرعتها ونجابتها، لما تفجر من رموز ومعان كثيرة يتشبّث بها ويعتز بتحقيقها كالبطولة والرجولة والمجد⁽²⁷⁾. إنّ شدة سيطرة المعارك الحربية على خيال الشاعر واستيلائها على مشاعره استخدامهما كعناصر لصوره في أبعد الموضوعات عن ميدان السجال والقتال فعندما وصف مجلس أنس وطرب، اختار أجزاء صورته من المعركة الحربية ومتطلباتها. ومن طبيعة المعارك البحرية أن يخوضها الأسطول مجتمعاً بكل سفنه، أو متفرقاً تبعاً لطبيعة المعركة، ولم يتخلف ابن درّاج عن وصف معارك الأسطول الأندلسي، لذا نجده يبتدئ بوصف السفينة وما فيها من فرسان وما يحملونه من سلاح، ويشبههم في ذلك ببحرثان يرتاع منها الموج، ويفزع من هذا الجيش الذي يسير فوقه لأنّ البحر يحقق الرعب والفزع لمن يركب فيه. وهنا الصورة انعكست حيث أصبح البحري فزع من هذا الجيش الذي يسير فوقه، فيتدافع أمام السفن والشرار المترابطة الكثيفة التي تبدوا وكأنها أجمة الأسود⁽²⁸⁾:

تَحَمَّلَ مِنْهُ الْبَحْرُ بَحْرًا مِنَ الْقَنَا يَرَوْعُ بِهَا أُمُوجُهُ وَيَهْوُلُ
بِكُلِّ مُعَالَاةٍ الشَّرَاعِ كَأَنَّهُمَا - وَقَدْ حَمَلَتْ أَسَدَ الْحَقَائِقِ - غِيلُ
إِذَا سَابَقَتْ شَاوُ الرِّيحِ تَخَيَّلْتُ خُبُولًا مَدَى فُرْسَانِهِنَّ خِيُولُ
سَحَابٌ تُزْجِمُهُ الرِّيحُ فَإِنْ وَقَتْ⁽²⁹⁾ أَنَاقَتْ بِأَجْيَادِ النَّعَامِ فَيُؤَلُّ⁽³⁰⁾

فالشاعر يصور السفينة وما فيها من فرسان، وما يحملونه معهم من سلاح، ويشبههم في ذلك بالبحر على عادة الشعراء في تشبيه الجيش بالبحر. ونحن نعلم أنّ البحر يحقق نوع من الرعب والفزع لمن يركب فيه، فإنّ هذه الصورة قد انعكست فأصبح البحر هو الذي يفزع من هذا الجيش الذي يسير فوقه، فهذه السفن تمدّ شرارها وتتحرك بمن عليها من فرسان يشبههم بالأسود، كما يشبه السفينة بما عليها من فرسان بالأجمة أو الشجر الملتف الذي يعيش فيه الأسود، ثمّ يصف

سرعتها حتى تبدو كأنّها تسابق الرّيح، ونجده يشبّه السفينة أيضا بالخيّل التي يمتطيها الفرسان الذين ليس لهم غاية إلّا ملاقاتة أمثالهم من الفرسان، ثمّ يعود ويشبه السفينة بالسحب التي تدفعها الرّيح، حتى إذا وصلت إلى أرض العدو فإنّها تسقط عليهم مطرا من الفرسان. ويركز ابن درّاج على شكل السفينة فيقول إنّ هذه السفن لها أعناق النّعام في رشاقتها، وهذه الأعناق ركبت على أجسام فيلة يريد بذلك ضخامة جرم السفينة نفسها⁽³¹⁾، كما أشارت الباحثة لمضمون هذه الأبيات فقالت: « إنّ لها رقابا طويلة طال بها البقاء في موطنها، ولكن لضعفها استطاعت تلك الرّيح إبعادها وتشيت شملها⁽³²⁾ ». ويمضي ابن درّاج في قنص التشبيهات، حيث ينتقل إلى وصف الجندي المحارب فيقول⁽³³⁾:

خَفِيفٌ عَلَى ظَهْرِ الْجَوَادِ إِذَا عَدَا وَلَكِنْ عَلَى صَدْرِ الْكَبِيِّ ثَقِيلٌ

ويقصد بكلمة خفيف أن الفتى إذا ركب الجواد وانطلق لا يشعر بثقله، أما إذا اشتد صراعه مع عدوه فإنه يشعر أنه ثقیل على صدره. أمّا من حيث وصف سير المعارك عموما عند الشاعر فنعت العدو بالكثرة التي لا تغني، وهو عند الشاعر زعيم بالكتائب، معروف بالدهاء والتجارب، ولكنّها لا تغنيه نفعاً، ونلمس تأثر الشاعر بالثقافة المشرقية بشكل عام من خلال وصفه، أثناء حديثه ووصفه لمشقات الارتحال ومصارعته للأهوال وذلك في قوله⁽³⁴⁾:

وَلَوْ شَهِدْتَنِي وَالصَّوَاخِدُ تُلْتَنِظِي عَلَيَّ وَزَقْرَاقُ السَّرَابِ يُمُورُ

فهو يصوّر مشقات رحلته، بقطعه الصحاري التي لا ماء فيها ولا كلاً ولا ناس (خالية) بحرّ رمالها، وشدة لهيب هجيرها⁽³⁵⁾، وكأنّه أخذ من قول المتنبي⁽³⁶⁾:

أَعْرَضُ لِلرِّمَاحِ الصُّمِّ نَحْرِي وَأَنْصِبُ حُرُوجِي لِلْهَجِيرِ
وَأُسْرِي فِي ظِلِّ اللَّيْلِ وَحْدِي كَأَنِّي مِنْهُ فِي قَمَرٍ مَنِيرِ

يتضح لنا أنّ معانيه تقليدية، لكن عندما ندقق جيّداً فيها نلمس نبذة التجديد ويكمن ذلك في عرضه المزج بين الوصف الحسي والنفسي (للموت تلون، وللذعر صفير)، وفي حديثه أيضاً عن عذيف الجن الذي بات طول اللّيل يتابعه، وبالتالي الشاعر مقلد ومجدد في نفس الوقت، فهو مبتكر في عرض معانيه، فيفصل القول في أمر لم نألفه في هذا الموضوع، فهو لا يكتفي بالإيجاز، وإنّما يتوسع في الصورة مستندا القديم. إذن فأسلوبه الشعري قائم على نسج شعره نسجا تشابك فيه الخيوط المشرقية والأندلسية إلى حد بعيد؛ فهو بارع في هذه المزاوجة، ممّا يؤكّد شاعريته الفذة

فيجعلنا أمام لوحة فنية متفردة، فالشاعر مولع بتتبع شعر المتنبي ولاحظ ذلك صاحب الذخيرة وفي غير موضع من شعره هذا البيت⁽³⁷⁾:

أواصلُ أناءِ الأصائلِ بالضُّحَى وزَّادي من جُهدي وزاحِلتي رجلي
وهذا ممّا شرحه وأوضحه المتنبي⁽³⁸⁾:

لا ناقتي تُقبلُ الرِّديفَ⁽³⁹⁾ ولا بالسوطِ يومَ الدهانِ أُجهدُها
شراكُها⁽⁴⁰⁾ كورها⁽⁴¹⁾ ومُشفرُها⁽⁴²⁾ زمامُها⁽⁴³⁾ والشُّسوعِ مِقوْدُها

ولم يكتفِ ابن درّاج على التأثير بالمتنبي والأخذ عنه فقط، بل تأثر بالبحري والشريف الرضي، فيقول في وصفه عظمة صفوف الجيش وانتظامها حوله بكامل عدتها ممّا ألقى المزيد من الهيبّة في قلوب الرعيّة⁽⁴⁴⁾:

وقد قامَ مِنْ زُرْقِ الأَسِنَّةِ دُونَهَا صفُوفٌ ومِنْ بيضِ السُّيُوفِ سَطُورُ
وكأنه في هذا البيت يحاكي قول البحري واصفا سلاح ممدوحه الذي أشرعه ساعة لقائه وفد الأعداء⁽⁴⁵⁾:

نَصَبَتْ لَهُمْ طَرْفًا حَديدًا وَمَنْطِقًا سَدِيدًا وَرَأْيًا مِثْلَ ما انْتَضَى النَّصْلُ
وقول الشريف الرضي مشيدا بكلام ممدوحه الذي يفوق السيوف القواطع⁽⁴⁶⁾:

وطَعْنَتْ مِنْ غَزَرِ الكَلَامِ بِقَيْصَلٍ لا يَسْتَقِلُّ بِهِ السِّنَانُ الأَزْرَقُ
ويقول ابن درّاج⁽⁴⁷⁾:

نُفُوسًا حَنَتْ قَوْسُ عَطْفِي عَلَمَهَا فَكُنَّ سِهَامَ قَبِييِ الخُمُولِ
ونجد معنى هذا البيت في قول الشريف الرضي⁽⁴⁸⁾:

هُنَّ القَيْسِيُّ مِنَ النُّحُولِ فَإِنْ سَمَا طَلَبَ فَمِنْ مِنَ النَّجَاءِ الأَمْهُمِ
وفي هذا يقول الثعالبي:

«وما أحسن ما جمع بين القسي والأسهم وما أراه سبق إليه على هذا الترتيب⁽⁴⁹⁾».

ويقول ابن درّاج واصفا الخيل⁽⁵⁰⁾:

وَكَاثِمًا كِسْفَ العَجَاجِ— إذا التَّقَتْ أَسْدُ الكُمَا—سَحَابٍ مَطَرَتْ بِدَمٍ

وفي نفس المعنى نجد قول المتنبي واصفا سيف الدولة⁽⁵¹⁾:

سَحَائِبُ يُمَطِّرُنَ الْحَدِيدَ عَلَيَّهِمْ فَكُلُّ مَكَانٍ بِالسُّيُوفِ غَسِيلٌ

فابن دراج يشبّه عجاج الحرب بالسحائب، ويجعلها تمطر دماً، وهي الصورة الموجودة في صورة الخيل عند المتنبي، والتي يشبّها بالسحائب، ويجعل مطرها السيوف، كما نجده يحاكي كعب بن مالك وابن عبد ربه في وصفه للرمح يقول⁽⁵²⁾:

وَأَزْرَقُ يَتَلَطَّى فَوْقَ عَامِلِهِ شِهَابٌ قَذَفَ إِلَى الْعَيُوقِ قَدْ طَمَحَا

ويقول كعب بن مالك⁽⁵³⁾:

وَأَعَزُّ أَرْزَقٍ فِي الْقَنَاةِ كَأَنَّهُ فِي طُخَيَةِ الظُّلُمَاءِ ضَوْءُ شِهَابٍ

ويقول ابن عبد ربه⁽⁵⁴⁾:

بِكُلِّ رِدْيَةٍ كَأَنَّ سِنَانَهُ شِهَابٌ بَدَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ سَاطِعٌ

فهو استقى هذا البيت الذي يجعل فيه رمح العامري شهاباً قذف لا يرضى إلاّ نجم السماء المرتفع هدفاً له من بيتي كعب بن مالك وابن عبد ربه، كما يقول ابن دراج في وصفه للسيوف العامرية أيضاً⁽⁵⁵⁾:

وَصَوَارِمٌ جَلَبَتِ الظُّلَامَ وَمَا لَهَا بِسُوى الْجَمَاجِمِ وَالنُّحُورِ صِقَالٌ

يقول المتنبي⁽⁵⁶⁾:

وَلَى صَوَارِمُهُ إِكْذَابَ قَوْلِهِمْ فَهِنَّ أَلْسِنَةُ أَفْوَاهِهَا الْقِمَمُ

نَوَاطِقُ مُخْبِرَاتٍ فِي جَمَاجِمِهِمْ عَنْهُ بِمَا جَهِلُوا مِنْهُ وَمَا عَمِلُوا

يبدو تأثر ابن دراج بالمتنبي واضحاً، وذلك من خلال الإشارة إلى أثر السيوف في جماجم الأعداء، إلاّ أنّه بعدها فصل القول على نحوٍ مغاير، وخلاصة القول أنّ ابن دراج استقى مادته من الموروث (قدماء ومحدثين) ثم يعيد خلقها ويلبسها ثوباً جديداً متناغماً مع بيئته وواقعه.

الهوامش:

- (1) - ينظر: محمد عبید صالح السبھانی، المكان في الشعر الأندلسي، من الفتح حتى سقوط الخلافة، دار الآفاق العربية للنشر والتوزيع والطباعة، مصر، القاهرة، ط2007، 1، ص55.
- (2) - بطرس البستاني: أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، ص 103.
- (3) - جودت الركابي: في الأدب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة، ص 120 .
- (4) - إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، ط6، ص111.
- (5) - ابن دراج : الديوان ، تح: محمود علي مكّي، المكتب الإسلامي، ط2، 1969م، ص36.
- (6) - ينظر: أشرف علي رعوور: الصورة الفنيّة في شعر ابن دراج القسطلّي الأندلسي، تح: محمود علي مكّي، مكتبة نخضة الشرق، جامعة القاهرة، مصر، ص512.
- (7) - ابن دراج: الديوان، ص35.
- (8) - عمر الدقاق: ملامح الشعر الأندلسي، منشورات جامعة حلب، سوريا، ط3، 1978م، ص110.
- (9) - ابن دراج: الديوان، ص248.
- (10) - المصدر نفسه: ص98-100.
- (11) - ابن الكتاني : كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1966م ، ص67-69.
- (12) - ابن دراج: الديوان، ص 213/212.
- (13) - ابن الكتاني: التشبيهات، ص112.
- (14) - ابن دراج: الديوان، ص 66.
- (15) - مها روعي إبراهيم الخليلي: الحنين والغربة في الشعر الأندلسي " عصر سيادة غرناطة (635هـ/897هـ)، رسالة ماجستير، 2007م، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، ص137.
- (16) - جودت الركابي : في الأدب الأندلسي، ص 120.
- (17) - ابن دراج: الديوان، ص 334/333.
- (18) - ينظر: حميدة صالح البلداوي: موازنات شعرية بين الأندلسيين والمشاركة، دار الضياء للنشر والتوزيع، 2009م، ص96.
- (19) - ابن دراج: الديوان، ص 172.
- (20) - ينظر: يوسف عيد، دفاتر أندلسية في الشعر والنثر والنقد والحضارة، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، 2006م، ص388.
- (21) - ابن دراج: الديوان، ص 122.
- (22) - المصدر نفسه: ص 05.

- (23) - المصدر نفسه: ص 72.
- (24) - المصدر نفسه: ص 05.
- (25) - حميدة صالح البلداوي: موازنات شعرية بين الأندلسيين والمشاركة، 2009م، ص 62.
- (26) - ابن درّاج: الديوان، ص 463.
- (27) - حازم خضر: وصف الحيوان في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1987م، ص 29.
- (28) - ابن درّاج: الديوان، ص 04.
- (29) - وفّ: طالت وتمت.
- (30) - فيول: ضعيفة.
- (31) - أشرف علي رعوور: الصورة الفنية في شعر ابن درّاج القسطلّي الأندلسي، ص 456.
- (32) - روضة بنت بلال بن عمر المولد: الاغتراب في حياة ابن درّاج وشعره، المملكة العربية السعودية، جامعة أمّ القرى، رسالة ماجستير، 2007م، ص 53.
- (33) - ابن درّاج: الديوان، ص 05.
- (34) - المصدر نفسه: ص 251.
- (35) - ينظر: حميدة صالح البلداوي: موازنات شعرية بين الأندلسيين والمشاركة، ص 103.
- (36) - شرح ديوان المتنبي: عبد الرحمان البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، 2007م، ج 2، ص 400/399.
- (37) - ابن بسّام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عبّاس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ط 1، 1/1، 1979م، ص 79.
- (38) - المتنبي: الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، 1980م، ص 9.
- (39) - الرديف: الراكب خلف الراكب.
- (40) - الشراك: سير النعل.
- (41) - الكور: رحل الناقة.
- (42) - المشفر من الناقة: كالشفه من الإنسان.
- (43) - زمام النعل: ما تشد إليه شسوعها وهي السيور التي تكون خلال الأصابع.
- (44) - المصدر نفسه: ص 253.
- (45) - البحترى: الديوان، دار المعارف، القاهرة، 1911م، ص 253.
- (46) - الشريف الرّضي: الديوان، دار صادر، بيروت، 1961م، ص 38.
- (47) - ابن درّاج: الديوان، ص 66.
- (48) - ابن بسّام: الذخيرة، 1/1، ص 89.

-
- (49) - الثعالبي: يتيمة الدهر، ج3، ص133.
- (50) - ابن دراج: الديوان، ص357.
- (51) - شرح ديوان المتنبي: عبد الرحمان البرقوقي، ص122.
- (52) - ابن دراج: الديوان، ص340.
- (53) - كعب بن مالك: الديوان، تح: سامي مكّي العاني، عالم الكتب بيروت، ط2، 1997م، ص153.
- (54) - ابن عبد ربه: الديوان، تح: محمد الطونجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، ص199.
- (55) - ابن دراج: الديوان، ص372.
- (56) - المتنبي: الديوان، ج2، ص320.